الورق أو الكاغد
صناعته في العصور الاسلامية

محتويات البحث :

١ — تمهيد

لا مراء في انّ « الورق » من أهمّ المواد التي ساعدت البشر على السير بخطىً واسعة في مضمار العلم والحضارة ٠ فكانت العلوم والآداب ، قبل أن يتوصّل الناس الى صنع الورق ، ضيقة النطاق ، محدودة المناحي ، محصورة في طبقة معيّنة من الناس ٠ ذلك انّ المواد المتخذة للكتابة في تلك العصور الخوالي ، لم تكن مما يسهل استعماله وحمله ولا مما يتيسر اختزانه بالوجه الذي نراه في الورق ٠

٢ — مواد الكتابة قبل صُنع الورق

وقد اتخذت الأمم القديمة مواد مختلفة لتدوّن فيها ما عندها من علوم وفنون وغير ذلك مما تقتضيه الحياة اليومية ٠

ومن أقدم المواد التي اتخذها الأقدمون للكتابة « الطين » ٠ فكانوا يصنعونه قوالب ، ويكتبون عليه في حال طراوته ، ثم يجففونه بالشمس أو يطبخونه بالنار ٠

وقد عثر المنقبون في العراق وفي غيره من بلدان الشرق الأدنى، على عشرات آلاف ألواح الطين، المكتوبة بالخطوط المسمارية، تلك الخطوط التي كُتبت بها جملة لغات قديمة بائدة، كالسومرية والأكدية والآشورية وغيرها.

ومن تلك المواد: «الحجر». وهو مادة أقوى من الطين على البقاء، غير انها أثقل وزناً. وكلتا هاتين المادتين، أعني الطين والحجر، لا يمكن الاكثار منها، لصعوبة حملها ولضخامة حجمها.

وهنالك من المواد الأخرى، شيء كثير يتعذّر حصره. فقد وصف أبو الريحان البيروني (المتوفى سنة ٤٤٠ هـ — ١٠٤٨ م) ما كان يتخذه أهل الهند القدماء لكتابتهم، قال: «فالهند، أما في بلادهم الجنوبية، فلهم شجر باسق كالنخل والنارجيل، ذو ثمر يؤكل وأوراقٍ في طول ذراع وعرض ثلاث أصابع مضمومة يسمونها تاري، ويكتبون عليها، ويَضُمّ كتابَهم منها خيطٌ ينظِمُها من ثقبةٍ في أوساطها فينفذ في جميعها. وأما في واسطة المملكة وشمالها، فانهم يأخذون من لحاء شجرة التوز الذي يُستعمل نوعٌ منه في أغشية القسيّ ويسمونه بهوج، في طول ذراع وعرض أصابع ممدودة فما دونه، ويعملون به عملاً كالتدهين والصقل يصلبُ به ويتملس ثم يكتبون عليها، وهي متفرقة يُعرف نظامها بأرقام العدد المتوالي، ويكون جملة الكتاب ملفوفة في قطعة ثوب ومشدودة بين لوحين بقدرهما، واسم هذه الكتب پوتي، ورسائلهم وجميع أسبابهم تنفذ في التوز أيضاً»[1].

وذكر المسعودي (المتوفى سنة ٣٤٥ هـ — ٩٥٦ م) ضرباً آخر مما كان يُكتب فيه في الهند، وهو «الكاذي». ولم يتحقق عندنا ما إذا كان الكاذي هو «التاري» الذي وصفه البيروني أعلاه. قال المسعودي: «وكان كتابه [كتاب

(١) تاريخ الهند (= تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) للبيروني (ص ٨١، طبعة سخو، ليبسك ١٩٢٥).

ملك الهند الى ملك الفرس كسرى أنو شروان] في لحاء الشجر المعروف بالكاذي ، مكتوب بالذهب الأحمر . وهذا الشجر يكون بأرض الهند والصين ، وهو نوع من النبات عجيب ، ذو لون حسن وريح طيبة ، لحاؤه أرق من الورق الصيني ، يتكاتب فيه ملوك الصين والهند » [١] .

وقد اختلفت الأمم الغابرة في المواد التي اتخذتها للكتابة عليها ، وهي مواد ، مهما قيل في بقائها على مر السنين ، فانها من وجهة عملية لا يمكن اتخاذها على الدوام ، لقلتها وثقلها وكبر حجمها على ما بيناه سابقاً . فلا غرو أن يكون عمرها — مهما طال — قصيراً محدوداً . قال ابن النديم (المائة الرابعة للهجرة) : « . . . ثم كتبت الأمم بعد ذلك برهةً من الزمان في النحاس والحجارة للخلود . . . [٢] وكتبوا في الخشب وورق الشجر . . . وكتبوا في التوز الذي يعلى به القسي أيضاً للخلود . . . ثم دُبغت الجلود فكتبت الناس فيها . وكتب أهل مصر في القرطاس المصري ، ويُعمل من قصب البردي . . . والروم تكتب في الحرير الأبيض [٣] والرَّق وغيره وفي الطومار [٤] المصري وفي الفلجان وهو جلود الحمير الوحشية . وكانت الفرس تكتب في جلود الجواميس والبقر والغنم . والعرب تكتب في أكتاف الإبل واللخاف وهي الحجارة الرِقاق البيض وفي العسب عسب النخل . والصين في الورق الصيني ويُعمل من الحشيش وهو أكثر ارتفاع البلد . والهند في النحاس والحجار وفي الحرير الأبيض » [٥] .

---

(١) مروج الذهب للمسعودي (٢ : ٢٠٢) طبعة باريس .

(٢) نضع نقطاً (. . .) في مواضع الحذف .

(٣) جاء في تاج العروس (٧ : ٩٥) ، ان « المُهْرَق : ثوب حرير ابيض يُسقى الصمغ ويُصقل ويُكتب فيه . وفي شرح معلّقة الحرث بن حلزّة : كانوا يكتبون فيها قبل القراطيس بالعراق » .

(٤) الطومار : الصحيفة أو الورقة . وهي لفظة دخيلة يونانية الأصل .

(٥) الفهرست لابن النديم (ص ٢١ طبعة فلوجل ليبسك = ص ٣١ — ٣٢ طبعة مصر) .

وقد أورد القلقشندي (المتوفى سنة ٨٢١ هـ — ١٤١٨ م) كلاماً شبيهاً بما أثبتناه أعلاه ، اكتفينا بالتنويه به [(١)] .

لقد خطا البشر خطوة واسعة في تحسين مواد الكتابة ، حين أخذوا يكتبون على أوراق البردي (Papyrus) ولنقل كلمة في هذا الموضوع ، نظراً الى ان أوراق البردي كانت فتحاً جديداً في مواد الكتابه .

٣ — اوراق البردي ـ القراطيس

عُني غير واحدٍ من الباحثين المستشرقين بدراسة أوراق البردي وكيفية صنعها . قال ألفرد بتلر : « كان في مصر السفلى ، عدد عظيم من غياضٍ فسيحة تنبت البردي ، ذلك النبات الطويل الحسن . وكان الورق يُتّخذ من لبابه ، يشقّ شرائح تُجعل منها صحائف بالضغط ، ثم تُصقل بآلة من العاج . وكانت الصحائف بعد ذلك يُوصَل بعضها ببعض ، فتكون لفائف يسهل استعمالها . وكانت مقادير عظيمة من البردي تصدر من مصر من مرسى الاسكندرية المزدحمة . ولسنا ندري متى ضعف أمر هذه التجارة ولا الأسباب التي أدّت الى القضاء على هذا النبات في مصر » [(٢)] .

فكانت مصر ، البلد الذي يمدّ سائر الأقطار بأوراق البردي ، منها تُنقل الى بلاد الروم [(٣)] والى غيرها من الجهات .

وأوراق البردي كانت تُعرف في كثير من المراجع القديمة باسم « القراطيس » ، فذكر السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ — ١٥٠٥ م) ، انّ من خصائص مصر : « القراطيس ، وهي الطوامير . وهي أحسن ما كُتب فيه . وهو من حشيش أرض مصر ، ويُعمل طوله : ثلاثون ذراعاً وأكثر في عرض شبر » [(٤)] .

(١) صبح الأعشى (٢ : ٤٧٥ — ٤٧٦) ، وضوء الصبح المسفر (١ : ٤١٢) .
(٢) فتح العرب لمصر (ص ٩٥ من الترجمة العربية لمحمد فريد أبو حديد) .
(٣) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٢٤٠ طبعة دي غويه ، ليدن ١٨٦٦) .
(٤) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي (٢ : ١٧٣ ، القاهرة ١٣٢٧ هـ) .

والى قراطيس مصر ، أشار بعض الشعراء :

حملت اليك عروس الثناء على هودج ماله من بعير
على هودج من قراطيس مصـ ـر يلينُ على الطيّ لين الحرير [1]

وأشار ابن حوقل الى وجود البردي في جزيرة صقلية ، وابن حوقل من أشهر البلدانيين العرب في المائة الرابعة للهجرة ، قال : « وفي خلال أراضيها بقاعٌ قد غلب عليها البربيرُ ، وهو البردي المعمول منه الطوامير ، ولا أعلم لِما بمصر من هذا البربير نظيراً على وجه الأرض ، إلا ما بصقلية منه ، وأكثره يُفتل حبالاً لمراسي المراكب ، وأقلّه يُعمل للسلطان منه طوامير القراطيس ، ولن يزيد على قلة كفايته » [2] .

ونوّه البيروني بورق البردي في قوله : « إن القرطاس معمول بمصر من لبّ البردي يُبْرى في لحمه ، وعليه صدرتْ كتب الخلفاء الى قريبٍ من زماننا ، إذ ليس ينقاد لحكِّ شيء منه وتغييره بل يفسد به » [3] .

و « القراطيس » ، واحدها « القرطاس » ، وقد ورد كلاهما في القرآن الكريم [4] . وعدّه بعض اللغويين من الألفاظ الدخيلة . قال الجواليقي : « والقرطاس (بضم القاف وكسرها) ، قد تكلموا به قديماً [5] . ويقال ان أصله غير عربيّ » [6] .

---

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي (ص ٤٢١ ، القاهرة ١٩٠٨) .
(٢) صورة الأرض لابن حوقل (١ : ١٢٢ - ١٢٣ طبعة كريمزر ، ليدن ١٩٣٨) .
(٣) تاريخ الهند للبيروني (ص ٨١) .
(٤) سورة الأنعام (الآية ٦ و ٩٠) .
(٥) نقل الصولي كثيراً من الأقوال القديمة الواردة في القرطاس . (انظر : أدب الكتّاب . ص ١٠٥ - ١٠٦ ، القاهرة ١٣٤١ هـ) .
(٦) المعرّب للجواليقي (ص ٢٧٦ بتحقيق أحمد محمد شاكر) ، وانظر : شفاء الغليل للخفاجي (ص ١٨٠ ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ١٢٨٢ هـ) .

قلنا : واللفظة من اليونانية (Chartes) ومعناه ما يكتب فيه ، ويقابله في العربية ورقة وصحيفة [١] .

اتخذ المسلمون أوراق البردي للكتابة عليها في أوائل عصور تاريخهم . ولقد عُثر في المائة سنة الأخيرة ، على جملة صالحة من أوراق البردي العربية ، كُشف عليها في مصر . وقد أماطت اللثام بنصوصها الثمينة عن كثير مما يتعلّق بالادارة الاسلامية للقطر المصري [٢] .

وممن عُني من المستشرقين بدراسة أوراق البردي العربية ، كراباسك (J. Karabacek) وبكر (C. H. Becker) وغيرهما . ولعلّ أعظم المتوغلين في هذا الموضوع في عصرنا ، هو العلامة جروهمان (A. Grohmann) الذي درس ونشر جملةً من أوراق البردي العربية المحفوظة في ڤينّة والقاهرة [٣] وغيرهما .

* * *

ظل استعمال القراطيس قائماً في العراق مدة طويلة بعد الفتح الاسلامي . فذكر ابن عبدوس الجهشياري (المتوفى سنة ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م) ، انّ الخليفة أبا جعفر المنصور ، باني مدينة بغداد « وقف على كثرة القراطيس في خزائنه ، فدعا بصالح ، صاحب المصلى ، فقال له : إني أمرتُ باخراج حاصل القراطيس في خزائننا ، فوجدته شيئاً كثيراً جداً ، فتولَّ بيعه ، وإن لم تُعطَ بكل طومار إلا دانقاً [٤] ، فان تحصيل ثمنه أصلح منه . قال صالح : وكان الطومار في ذلك الوقت بدرهم ، فانصرفتُ من حضرته على هذا . فلما كان في الغد ،

(١) انظر : Dozy, Supplément aux Dictionnaires Arabes . (Vol . 2 , p. 331) وتفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية للقس طوبيا العنيسي (ص ٥٥ ، بالقاهرة ١٩٣٢) .

(٢) محاضرات عن الأوراق البردية العربية لجروهمان وتعريب توفيق اسكاروس (مطبعة دار الكتب ، ١٩٣٠) .

(٣) Grohmann, Arabic Papyri in the Egyptian Library . (3 vols . , Cairo , 1934 - 38) والمجلد الأول منه ، نقله مؤلفه الى العربية ، باشتراك الدكتور حسن ابراهيم حسن (القاهرة ١٩٣٤) .

(٤) الدانق ، سدس الدرهم .

دعاني ، فدخلتُ عليه ، فقال لي : فكرتُ في كتبنا ، وانها قد جرت في القراطيس ، وليس يُؤمَن حادث بمصر ، فتنقطع القراطيس عنا بسببه ، فنحتاج الى أن نكتب فيما لم نعوّده عمالنا . فدع القراطيس استظهاراً على حالها . ولهذه العلة كانت الفرس تكتب في الجلود والرقّ ، وتقول : لا نكتب في شيء ليس من بلادنا » (١) .

وقد كان في الجانب الغربي من بغداد ، أعني في الكرخ ، درب يُعرف بدرب القراطيس ، أو درب أصحاب القراطيس ، ذكره غير واحدٍ من الكتبة الأقدمين ، كالجاحظ (٢) والطبري (٣) والخطيب البغدادي (٤) وعمرو بن متى (٥) وماري بن سليمان (٦) وغيرهم . ولم يشيروا إلى هل كانت القراطيس تُصنع في هذا الدرب ، أم كانت تُباع فيه ؟

وذكر ابوسعد السمعاني (المتوفى سنة ٥٦٢ هـ - ١١٦٦م) في مادة «القرَاطيسي» ، ان « هذه النسبة الى عمل القراطيس وبيعها » (٧) . ثم ذكر غير واحدٍ ممن عُرف بهذه النسبة ، وأغلبهم من بغداد أو ممن قدم اليها . فلعل نسبتهم جاءت من سكناهم درب القراطيس ، أو من صنعهم أو بيعهم القراطيس ذاتها .

وأورد الخطيب البغدادي (المتوفى سنة ٤٦٣ هـ - ١٠٧٠ م) ، تراجم سبعة رجال عُرف كل منهم بـ « القراطيسي » . وأمرهم أمر مَن ذكرهم السمعاني في استبهام نسبتهم ، إذ انّ الخطيب لم يُفصح عن ذلك في تراجمهم المقتضبة (٨) .

(١) الوزراء والكتّاب للجهشياري (ص ١٣٨ طبعة البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٣٨) .
(٢) المحاسن والأضداد المنسوب للجاحظ (ص ٣٣٦ و٣٣٧ طبعة فان فلوتن ، ليدن ١٨٩٨).
(٣) تاريخ الطبري (٣ : ٩٩٩ طبعة دي غويه) .
(٤) تاريخ بغداد لأبي بكر الخطيب البغدادي (٩ : ٨٦) .
(٥) أخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل لعمرو بن متى (ص ١١٩ طبعة جسمندي . رومية ١٨٩٦) .
(٦) أخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل لماري بن سليمان (ص ٨٥ طبعة جسمندي . رومية ١٨٩٩) .
(٧) الأنساب للسمعاني (وجه الورقة ٤٤٥ طبعة مرجليوث ، ليدن ١٩١٢) .
(٨) تاريخ بغداد للخطيب (٢:٩١ ، ٤:٤٣٠ ، ١١:٢٣٣ ، ١٢:٣ و١٥١، ١٣:٤٥).

وقد انتقلت صناعة القراطيس الى مدينة سامراء في أيام المعتصم . فذكر اليعقوبي (المتوفى في أواخر المائة الثالثة للهجرة) ، ان المعتصم ، حين ابتنى مدينة سامراء ، أقدم جماعاتٍ من أرباب المِهَن والصنائع ، لتعمر بهم مدينته ، ومن جملتهم انه « حمل قوماً من أرض مصر يعملون القراطيس ، فعملوها ، فلم يأتِ في تلك الجودة »[١] .

٤ — الجلود والرقوق[٢]

ولم تقصر مواد الكتابة على ما ذكرنا ، بل اتخذ الناس من جلود الحيوان مادةً حسنة للكتابة ، تعيش دهراً طويلاً قبل ان ينالها البلى .

وبعض الجلود الخفيفة ، اذا خُدمت بالدباغة والصقل ، كان منها الرقوق النفيسة التي يُعدّ بعضها آية في الصناعة ، لجماله وخفته ولينه .

لقد كانت الرقوق مستعملةً قبل الاسلام ، ثم اتخذت في صدر الاسلام ، بيد ان ثمنها العالي حدّد من استعمالها وحصره في نُسخ القرآن والوثائق الرسمية والعقود وغير ذلك . قال البيروني في معرض كلامه على مواد الكتابة عند الأقدمين: « وليس للهند عادة بالكتابة على الجلود كاليونانيين في القديم . فقد قال سقراط حين سُئل عن تركه تصنيف الكتب : لستُ بناقلٍ للعلم من قلوب البشر الحية الى جلود الضأن الميتة . وكذلك كانوا في أوائل الاسلام يكتبون على الأَدَم ، كعهد الخيبريين من اليهود ، وككتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى كسرى ، وكما كُتبت مصاحف القرآن في جلود الظباء والتوراة تكتب فيها أيضاً »[٣] .

(١) تاريخ اليعقوبي (٢ : ٥٧٧ طبعة هوتسما ، ليدن ١٨٨٣) ، والبلدان لليعقوبي (ص ٢٦٤ طبعة دي غويه ، ليدن ١٨٩٢) .

(٢) من أنفس ما قرأناه في هذا الباب ، مقال للأستاذ المحقق الكبير حبيب زيات ، عنوانه « الجلود والرقوق والطروس في الاسلام » (مجلة « الكتاب » يولية ١٩٤٧ ، ص ١٣٥٨ — ١٣٦٦) وقد أغنانا هذا البحث عن الاطالة فيه ها هنا .

(٣) تاريخ الهند للبيروني (ص ٨١) .

وما زال في كثير من خزائن الكتب في بلدان الشرق والغرب ، أسفار مختلفة مكتوبة على الرقوق ، باليونانية واللاتينية والإرمية والعبرية والعربية وغيرها من اللغات .

٥ — الوَرَق — الكاغَد

« الكاغد » ، بفتح الغين ، لفظ فارسي [1] ، و « الكاغذ » بالذال المعجمة لغة فيه ، ولعل الكلمة من أصل صيني . وقد ورد ذكر « الورق » و « الكاغد » أو « الكاغذ » ، مراراً لا تُعدّ ولا تُحصى في المراجع العربية القديمة . بيد انّ كيفية صنعه ، والمواد التي يُصنع منها ، والأقيام التي كان يقوّم بها ، كلّ ذلك أمور قلّ ان تحفل بها مؤلفات الأقدمين . وغاية ما في الأمر ، إشارات وتلميحات خاطفة ، يمكن من جمع بعضها الى بعض أن يقوم موضوع دراسة للورق في العصور الاسلامية .

وحينما توصَّل الناس الى صُنع الورق ، ورأوا منه مادةً خفيفة لينة ، سهلة الحمل والنقل ، لا تتطلب حيزاً كبيراً ، أكثروا منه إكثاراً عظيماً ، جعل من الكتب أضعافاً مضاعفة .

٦ — الوَرَق السمرقنديّ

والمشهور في التاريخ ، ان أهل الصين كانوا أول مَن عرف صناعة الورق . وكان « الورق الصيني » يستورده التجار العرب الذين كانوا على اتصال تجاري قديم ببلاد الشرق الأقصى .

ولكن بدء صنع الورق في العالم الاسلامي ، كان من نتائج بعض الحروب . وأول مدينة اسلامية صُنع فيها الورق ، كانت سمرقند ، التي فتحها العرب سنة ٨٧ للهجرة (٧٠٤ م) . وسمرقند من أشهر مدن ما وراء النهر وأجلّها شأناً .

قال الثعالبي (وفاته سنة ٤٢٩ هـ — ١٠٣٧ م) في كلامه على ما يُضاف الى

(١) الألفاظ الفارسية المعربة لأدّى شير (ص ١٣٦ ، بيروت ١٩٠٨)

البلدان والأماكن من فنونٍ شتى ، انّ « كواغد سمرقند : هي من خصائصها التي عطلت قراطيس مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون فيها ، لأنها أنعم وأحسن وأرفق ، ولا تكون إلا بسمرقند والصين . وذكر صاحب المسالك والممالك ، انه وقع من الصين الى سمرقند في سبيٍ سباه زياد بن صالح ، في وقعة أطلح ، مَن يصنع الكواغيد ، ثم كثرت الصنعة واستمرت العادة ، حتى صارت متجراً لأهل سمرقند ، فعمَّ خبرها والارتفاق بها جميع البلدان في الآفاق [(١)] .

فهذه الواقعة ، التي جرت بين العرب بقيادة زياد بن صالح ، وبين أمراء الترك وحلفائهم الصينيين كانت على ضفاف نهر طراز سنة ١٣٤ هـ (٧٥١ م) ، وقد أشارت اليها المراجع العربية ومثلها الصينية . فهؤلاء الأسرى الصينيون الذين جيء بهمْ الى سمرقند لا بدّ ان يكونوا قد أُسروا في تلك الحادثة .

ونقل القزويني (المتوفى سنة ٦٨٢ هـ — ١٢٨٣ م) ما يشبه كلام الثعالبي الذي أوردناه آنفاً ، بقوله : « وبسمرقند من الأشياء الظريفة تُنقل الى سائر البلاد . منها الكاغد السمرقندي الذي لا يوجد مثله إلاّ بالصين . وحكى صاحب الممالك والمسالك ، انه دُفع من الصين الى سمرقند سبيٌ ، وكان فيهم مَن يعرف صنعة الكاغد ، فاتخذها ، ثم كثرت حتى صارت متجراً لأهل سمرقند . فمنها تُحمل الى سائر البلاد » [(٢)] .

ولم يتعين عندنا أي كتابٍ هذا الذي نقل عنه الثعالبي والقزويني ، ووسماه بالمسالك والممالك . فبين يدينا الآن ثلاثة أسفار عناوينها من هذا القبيل :

الأول : كتاب مسالك الممالك للاصطخري .

الثاني : كتاب المسالك والممالك لابن حوقل (وطُبع ثانيةً بعنوان « صورة الأرض ») .

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (ص ٤٣١ — ٤٣٢) ، وانظر : لطائف المعارف للثعالبي (ص ١٢٦ طبعة دي يونغ ، ليدن ١٨٦٧) ، وتاريخ الهند للبيروني (ص ٨١) .

(٢) آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني (ص ٣٦٠ طبعة وستنفلد ، غوتنجن ١٨٤٨) .

الثالث: كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه.

وهذه الكتب الثلاثة قد طُبعت ضمن مجموعة «الخزانة الجغرافية العربية» في ليدن.

ولم نجد في أيّ واحدٍ منها شيئاً من هذا الكلام المنقول. فهلاّ يكون الثعالبي والقزويني قد نقلا من كتابٍ آخر غير ما ذكرنا، لا سيما ان في المراجع القديمة [١] الباحثة في أحوال الكتب وصفاتها، ذِكراً لمؤلفاتٍ عديدة عُرفت بالمسالك والممالك.

وقد أشار النويري الى الورق السمرقندي، وعدّه من خصائص هذه المدينة. قال في كلامه على سمرقند: «ومن خصائصها: الكواغد التي عطلت قراطيسَ مصر والجلودَ التي كان الأوائل يكتبون عليها، لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأرق. ولا تكون إلا بها وبالصين» [٢].

وممن تطرّق لذكر ورق سمرقند، ابن الوردي (المتوفى سنة ٧٤٩ هـ - ١٣٤٨م). ففي الفصل الذي خصّه بأعاجيب البلدان، لم يفته أن ينوّه بأعاجيب سمرقند قائلاً: «ومن خصائصها: الكواغد التي أزرت بكواغد الأرض في الطول والعرض، والجلود والرقاق التي لا توجد في الدنيا. وكان الأوائل يكتبون كتب العلوم والحكمة والتواريخ لحسنها ولينها وإقامتها» [٣].

ولقد ضُربت الأمثال بكاغد سمرقند، نظراً الى جودته ونفاسته. ومما قرأناه في هذا الشأن، ما ورد في رسالة لأبي بكر الخوارزمي بعث بها الى أبي الحسين علي بن داية، وقد تأخرت عنه رسائلة: «... أم لأنّ سمرقند بعدتْ عليه، والكاغد عزّ لديه؟ فأنا أجهّز اليه قوافل تحمل من الكاغد أوقاراً، ويتصل مني اليه قطاراً قطاراً» [٤].

(١) الفهرست لابن النديم (في مواطن عديدة متفرّقة)، وكشف الظنون للحاج خليفة (٢ : ١٦٦٤ - ١٦٦٥ طبعة وزارة المعارف التركية).

(٢) نهاية الأرب للنويري (١ : ٣٥٤ طبعة دار الكتب المصرية).

(٣) خريدة العجائب لابن الوردي (ص ٢٣١ طبعة محمد شاهين، القاهرة ١٢٨٠ هـ).

(٤) رسائل أبي بكر الخوارزمي (ص ٢٥ طبعة الجوائب، الاستانة ١٢٩٧ هـ).

وقد قطع أبو سعد السمعاني بكون الكاغذ لا يُعمل في المشرق إلا في هذه المدينة . قال في مادة «الكاغذي» ، «هذه النسبة الى عمل الكاغذ الذي يُكتب عليه وبيعه . ولا يُعمل في المشرق إلا بسمرقند»[١] .

ونقل ياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ — ١٢٢٨ م) ، في ترجمة الوزير أبي الفضل جعفر بن الفضل ابن الفرات المعروف بابن حنزابة ، المتوفى سنة ٣٩١ هـ (١٠٠٠ م) ، انه كان يستورد الورق من سمرقند لاتخاذه فيما يستنسخه له الورّاقون لخزانته ، قال : «قال محمد بن طاهر المقدسي : سمعتُ أبا اسحاق الحبال يقول : كان يُستعمل للوزير أبي الفضل ، الكاغد بسمرقند ويُحمل اليه الى مصر في كل سنة . وكان في خزانته عدّة من الورّاقين ، فاستعفى بعضهم ، فأمر بأن يحاسَب ويُصرف ، فكمل عليه مائة دينار ، فعاد الى الوراقة وترك ما كان عزم عليه من الاستعفاء . قال : وسمعتُ أبا اسحق ابراهيم بن سعيد الحبال يقول : خرج ابو نصر السجزي الحافظ على أكثر من مائة شيخ ، لم يبقَ منهم غيري . وكان قد خرج له عشرين جزءاً في وقت الطلب ، وكتبها في كاغد عتيق . فسألتُ الحبال عن الكاغد ، فقال : هذا من الكاغد الذي كان يُحمل للوزير من سمرقند ، وقعت اليّ من كتبه قطعة ، فكنتُ اذا رأيتُ فيها ورقة بيضاء قطعتها ، الى أن اجتمع هذا . فكتبتُ فيه هذه الفوائد»[٢]

ونقل السيوطي قول بعضهم «قراطيس سمرقند لأهل المشرق ، كقراطيس مصر لأهل المغرب»[٣] . والمراد هنا بقراطيس سمرقند كاغدها .

ولما كانت سمرقند من أعمال ما وراء النهر ، سرَت شهرتها في صنع الورق الى تلك الديار . فقد أطرى بعض الكتّاب البلدانيين ما وراء النهر لاشتهارها

---

(١) الأنساب للسمعاني (وجه الورقة ٤٧٢) .

(٢) معجم الأدباء (٢ : ٤١٢) طبعة مرجلوث) .

(٣) حسن المحاضرة (٢ : ١٧٣) .

بالكاغد . من ذلك ما أورده ابن حوقل في أهلها « . . . ولهم الكاغذ الذي لا نظير له في الجودة والكثرة »[١] .

ومثل ذلك ما ذكره الاصطخري (وهو ، كابن حوقل ، من أهل المائة الرابعة للهجرة) بقوله : « وليس في شيء من بلدان الاسلام النوشاذر والكاغد ، إلا فيما وراء النهر »[٢] .

٧ - أنواع الورق

اتخذ العرب القطن ومواد نباتية أخرى في صنع الورق . وليس من شك في ان اختلاف المواد الأولية للورق ، أدّى الى ظهور جملة أنواع من الورق ، تختلف في ثخانتها ومتانتها وصقلها ولونها ولينها . قالوا : « وأحسن الورق ، ما كان ناصع البياض غرفاً صقيلاً ، متناسب الأطراف ، صبوراً على مرور الزمان »[٣] .

وقد ذكر ابن النديم ، ستة أنواع من الورق كانت معروفة في زمانه . قال بعد أن وصف أصناف المواد التي اتخذتها الأمم القديمة للكتابة عليها : « فأما الورق الخراساني ، فيعمل من الكتان ، ويقال انه حدث في أيام بني أمية ، وقيل في الدولة العباسية ، وقيل انه قديم ، وقيل انه حديث ، وقيل انّ صنّاعاً من الصين عملوه بخراسان على مثال الورق الصيني . فأما أنواعه : السليماني ، الطلحي ، النوحي ، الفرعوني ، الجعفري ، الطاهري »[٤] .

هذا ما كان شائع الاستعمال من ضروب الورق في البلدان الاسلامية ، في أواخر المائة الرابعة للهجرة .

فالورق السليماني ، منسوب الى سليمان بن راشد ، الذي كان والياً على خراسان في أيام هرون الرشيد[٥] .

(١) صورة الأرض لابن حوقل (٢ : ٤٦٥) .
(٢) مسالك الممالك للاصطخري (ص ٢٨٨ ، طبعة دي غويه ، ليدن ١٩٢٧) .
(٣) صبح الأعشى (٢ : ٤٧٦) .
(٤) الفهرست لابن النديم (ص ٢١ طبعة ليبسك = ص ٣٢ مصر) .
(٥) تاريخ الطبري (٣ : ٧٤٠) .

والورق الطلحي ، ينسب الى طلحة بن طاهر ، ثاني أمراء الدولة الطاهرية في خراسان . وقد حكم من سنة ٢٠٧ الى ٢١٣ هـ (٨٢٢ — ٨٢٨ م) .

والورق النُوحي ، كأنه منسوب الى « نوح » الساماني ، أحد أمراء الدولة السامانية التي حكمت تركستان وفارس . وقد قام في هذه الدولة اثنان بهذا الاسم :

أولهما : نوح الأول الساماني ، وقد حكم من سنة ٣٣١ الى ٣٤٣ هـ (٩٤٢ — ٩٥٤ م) .

ثانيهما : نوح الثاني الساماني، حكم من سنة ٣٦٦ الى ٣٨٧ هـ (٩٧٦ - ٩٩٧م).

ولم يتحقق عندنا الى أيهما نُسب هذا الصنف من الورق .

أما الورق الفرعوني ، فضربٌ آخر نافس ورق البردي حتى في عقر داره . وأقدم النصوص العربية التي عُثر عليها مدوّنةً في هذا الورق ، يرتقي تاريخها الى سنة ١٨٠ — ٢٠٠ هـ (٧٩٦ — ٨١٥ م)[١] .

ولكن استعمال هذا الورق ، لبث مئات سنين بعد هذا التاريخ . فقد ورد في ترجمة الشيخ الرئيس ابن سينا (المتوفى سنة ٤٢٨ هـ - ١٠٣٦ م) قول تلميذٍ له : « ... وأمرني الشيخ باحضار البياض[٢] وقطع أجزاء منه ، فشددتُ خمسة أجزاء ، كل واحد منها عشرة أوراق بالربع الفرعوني »[٣] .

والورق الجعفري ، نُسب الى جعفر البرمكي الذي قُتل سنة ١٨٧ هـ (٨٠٢ م) حين نكبة البرامكة .

والورق الطاهري ، وهو يُنسب الى طاهر الثاني ، من أمراء الدولة الطاهرية في خراسان ، وكان حكمه من سنة ٢٣٠ الى ٢٤٨ هـ (٨٤٤ — ٨٦٢ م) .

وأشار ياقوت الحموي الى « الارق الجَيْهاني »[٤] و « الورق المأموني »[٥] .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية (مادة : كاغد) .

(٢) يريد به الورق .

(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٢ : ٨)

(٤) معجم البلدان (٢ : ٩٥ طبعة ليبسيك) .

(٥) معجم الأدباء (٦ : ٢٨٥) .

فأولها يُنسب الى مدينة جَيهان إحدى مدن خراسان ، وثانيهما الى الخليفة المأمون العباسي (خلافته من سنة ١٩٨ الى ٢١٨ هـ) (٨١٣ — ٨٣٣ م) .

وذكر السمعاني ضرباً آخر من الورق ، سماه « الكاغذ المنصوري » . قال : ومن عُرف بالكاغذي " : « ابو الفضل منصور بن نصر بن عبد الرحيم الكاغذي " ، من أهل سمرقند . واليه يُنسب الكاغذ المنصوري المشهور ببلاد خراسان . توفي سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣١ م) بسمرقند »[١] .

وكان لهذا الورق المنصوري شهرة بعيدة في كثير من الأقطار الاسلامية ، حتى انه صار يُصنع منه في جملة أماكن ، كالعراق ومصر ، وذلك من باب التقليد والاقتباس .

غير اننا وقفنا على ذكرٍ لورقٍ منصوري آخر ، يسبق عهده عهد الورق المنصوري الذي ألمعنا إليه . ولم يتعين عندنا الى أي منصور نُسب . فقد روى بعض المؤرّخين ، ان الوزير ابا الحسن بن الفرات (المتوفى سنة ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م) ، كان من رسمه في أيام وزارته « أن لا يخرج أحد من داره في وقت عشاء ، إلا ومعه شمعة ودرج منصوري »[٢] .

والدرج المنصوري ، كان طبقةً من الورق تُلف لفاً ، وتستعمل لكتابة الرسائل وما إليها[٣] .

ومن أنواع الورق الأُخرى التي لم يتحقق عندنا الى اي شيء يُنسب ، « الورق الصلحي » . وقد رأيناه مذكوراً في مخطوط في خزانتنا[٤] .

ومن ضروب الورق الأُخرى ، التي لم يتعين عندنا اسمها ، ما ذكره ابو سعد السمعاني في كلامه على أبي الحسين بن ناصر الكاغدي المعروف بالدهقان ،

---

(١) الأنساب (وجه الورقة ٤٧٢) .
(٢) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء لهلال الصابئ (ص ٦٣ طبعة امدروز ، بيروت ١٩٠٤).
(٣) معجم الأدباء (١ : ٣٤٢) .
(٤) كتاب فضل القلم والخط واعمال المداد (مخطوط في خزانتنا ، وجه الورقة ٤٦)

انّ «اليه ، يُنسب الكاغد الحسن الذي لم يلحقه مَن سبقه في جودة الصنعة ونقاء الآلة وبياضها» [١] .

وقد كان أبوعلي الكاغدي ، معاصراً للسمعاني المتوفى سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦م) .

وعقد هلال بن المحسِّن الصابئ (المتوفى سنة ٤٤٨ هـ — ١٠٥٦ م) ، فصلاً في «الطروس التي يُكتب فيها الى الخلفاء وعنهم» ، قال فيه : «الذي جرت به العادة القديمة في الكتب السلطانية ، أن تكون في القراطيس المصرية الغريضة . فلما انقطع حملها وتعذَّر وجودها ، عُدِل الى الكاغد الشيطاني العريض . هذا في كتب العهود والولايات والألقاب ، وما يُكتب به الى أصحاب الأطراف وما يكتبون به . فأما ما يجري من الخليفة مجرى التوقيع من وزيره المقيم بحضرته مجرى المطالعة ، فالمستحبّ فيه الكاغد النصفي» [٢] .

ولم تكن خزائن الكتب الواسعة ، تخلو في الزمن القديم من أنواع الورق الذي يُتخذ للنسخ ، بل كان في بعضها أصناف نفيسة منه ، كالذي حكاه ياقوت الحموي عن خزانة الكتب لبهاء الدولة البويهي بشيراز ، وذلك في ترجمة الخطاط الشهير المعروف بابن البوّاب ، المتوفى سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) ، قال : «وحدّث في كتاب المفاوضة قال : حدثني أبو الحسن عليّ بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب قال : كنتُ أتصرّف في خزانة الكتب لبهاء الدولة بن عضد الدولة بشيراز على اختياري وأراعيها له وأمرها مردود إليّ . فرأيتُ يوماً في جملة أجزاء منبوذة جزءاً مجلداً بأسود ففتحته واذا هو جزء من ثلاثين جزءاً من القرآن بخط ابي علي بن مقلة ، فأعجبني وأفردته ، فلم أزل أظفر بجزء بعد جزء مختلط في جملة الكتب الى ان اجتمع تسعة وعشرون جزءاً وبقي جزء واحد استغرقتُ تفتيش الخزانة في مدة طويلة فلم أظفر به ، فعلمتُ أنّ المصحف

(١) الأنساب (وجه الورقة ٤٧٢) .

(٢) رسوم دار الخلافة لهلال الصابيء (ص ١٧٨ من المخطوط . وقد حقق ميخائيل عوّاد — أخي — هذا الكتاب وأعدّه للنشر) .

ناقص . فأفردته ودخلتُ الى بهاء الدولة وقلتُ : يا مولانا ، ها هنا رجل يسأل حاجة قريبة لا كلفة فيها ، وهي مخاطبة ابي علي الموفق الوزير على معونته في منازعة بينه وبين خصم له ، ومعه هدية ظريفة تصلح لمولانا . قال : أيّ شيء هي ؟ قلت : هي مصحف بخط ابي علي بن مقلة . فقال : هاته وانا أتقدم بما يريد . فأحضرتُ الأجزاء ، فأخذ منها واحداً وقال : أذكر وكان في الخزانة ما يُشبه هذا وقد ذهب عني . قلتُ : هذا مصحفك ، وقصصتُ عليه القصة في طلبتي له حتى جمعته ، وقلتُ : هكذا يُطرح مصحف بخط ابي علي إلا انه بنقص جزءاً فقال لي : فتممه لي . قلتُ : السمع والطاعة ، ولكن على شريطة انك اذا أبصرت الجزء الناقص منها ولا تعرفه أن تعطيني خلعةً ومائة دينار . قال : أفعل . واخذتُ المصحف من بين يديه وانصرفتُ الى داري ، ودخلتُ الخزانة أقلّب الكاغد العتيق وما يشابه كاغد المصحف ، وكان فيها من انواع الكاغد السمرقندي والصيني العتيق كلّ ظريف عجيب . فأخذتُ من الكاغد ما وافقني وكتبت الجزء وذهّبته وعتّقتُ ذهبه وقلعتُ جلداً من جزء من الأجزاء فجلدته به وجلدت الذي قلعتُ منه الجلد وعتقته . ونسي بهاء الدولة المصحف ، ومضى على ذلك نحو السنة . فلما كان ذات يوم ، جرى ذكر ابي علي بن مقلة ، فقال لي : ما كتبت ذلك ؟ قلتُ بلى . قال : فأعطنيه . فأحضرت المصحف كاملاً ، فلم يزل يقلبه جزءاً جزءاً ، وهو لا يقف على الجزء الذي بخطي ، ثم قال لي : أيما هو الجزء الذي بخطك ؟ قلت له لمَ لا تعرفه فيفتر في عينك ، هذا مصحف كامل بخط ابي علي بن مقلة ونكتم سرّنا . قال : افعل ، وتركه في ربعةٍ عند رأسه ولم يُعده الى الخزانة . وأقمتُ بها مطالباً بالخلعة والدنانير وهو يمطلني ويعدني . فلما كان يوماً قلتُ : يا مولانا ، في الخزانة بياض صينيّ وعتيق ومقطوع وصحيح ، فتعطيني المقطوع منه كله دون الصحيح بالخلعة والدنانير . قال : مرّ خذه . فمضيتُ وأخذتُ جميع ما كان فيها من ذلك النوع ، فكتبتُ فيه سنين »[1] .

(١) معجم الأدباء (٥ : ٤٤٦ — ٤٤٨) .

٨ — صناعة الورق في العراق

عمت شهرة الورق السمرقندي الأقطار ، وظلت سمرقند تمدّ البلاد الأخرى بما تنتجه معاملها من صنوف الورق . ولكن الحال لم تدم طويلاً ، فالأخبار التاريخية التي وقفنا عليها ، تنبئ ان صناعة الورق لم تلبث ان خرجت من مكمنها وتسرّبت الى بعض البلدان الاسلامية ، وفي طليعتها مدينة « بغداد » .

وقد أشار ابن خلدون إشارةً نفيسة في هذا الموضوع بقوله في الفصل الذي وسمه بـ « صناعة الوراقة » : « كانت السجلات أولاً لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والاقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد لكثرة الرفه وقلة التآليف صدر الملة ، وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك فاقتصروا على الكتاب في الرق تشريفاً للمكتوبات وميلاً بها الى الصحة والاتقان . ثم طما بحر التآليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرقّ عن ذلك . فأشار الفضل بن يحيي بصناعة الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه ، واتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية ، وبلغت الاجادة في صناعته ما شاءت » (١) .

فالفضل بن يحيى البرمكي ، وهو من أعيان وزراء بني العباس ، كان أنشأ أول معمل لصنع الورق في بغداد . فاذا علمنا أنّ مولد الفضل كان سنة ١٤٧ هـ (٧٦٤ م) ، ووفاته سنة ١٩٣ هـ (٨٠٨ م) أدركنا ان دخول صناعة الورق الى بغداد كان في نحو الربع الأخير من المائة الثانية للهجرة .

وهذه الصناعة الجديدة ، طرأ عليها تحسين كبير ، فلم تمضِ غير بضع سنين ، حتى كان اخوه جعفر بن يحيى البرمكي ، الذي أعقبه في دست الوزارة ، قد أحلّ الورق محلّ الرّق في دواوين الدولة .

وقد قال القلقشندي بصدد بدء صنع الورق في العراق انه « أجمع رأي

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٢٠٦ ، بولاق ١٢٧٤ هـ)

الصحابة، رضي الله عنهم، على كتابة القرآن في الرق لطول بقائه، أو لأنه الموجود عندهم حينئذٍ. وبقي الناس على ذلك الى ان ولي الرشيد الخلافة[1]، وقد كثر الورق وفشا عمله بين الناس، أمر أن لا يكتب الناس إلاّ في الكاغد: لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والاعادة فتقبل التزوير، بخلاف الورق، فانه متى مُحِيَ منه فسد، وان كُشط ظهر كشطه. وانتشرت الكتابة في الورق الى سائر الأقطار، وتعاطاها مَن قَرُب وبعد، واستمرّ الناس على ذلك الى الآن»[2].

وكانت صناعة الورق ببغداد في المائة الرابعة للهجرة، زاهرة بما كان يُرى فيها من معامل تصنعه، وحوانيت تبيعه.

ذكر الصولي انّ في ذي القعدة من سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣ م)، «وقع بالكرخ حريق عظيم، من حدّ طاق التكك السمّاكين، وعطف على أصحاب الكاغد وأصحاب النعال»[3].

وأشار ياقوت الحموي الى صنع الورق ببغداد في زمنه (المائة السابعة للهجرة). قال في كلامه على «دار القزّ» انها «محلة كبيرة ببغداد، في طرف الصحراء، بين البلد وبينها اليوم نحو فرسخ، وكل ما حولها قد خرب، ولم يبقَ إلا أربع محالّ متصلة: دار القزّ، والعتابيين، والنصرية، وشهار سوك. والباقي تلول قائمة. وفيها يُعمل اليوم الكاغد»[4].

وزاد ابن عبد الحق (المتوفى سنة ٧٣٩ هـ - ١٣٣٨)، انّ دار القز، في الجانب الغربي من بغداد[5].

ثم أشار ياقوت إشارة ثانية الى صنع الورق ببغداد في أيامه. قال في كلامه على «چهار سوج» انها «من محالّ بغداد، في قبلة الحربية، خرب ما حولها

(١) كانت خلافته من سنة ١٧٠ الى سنة ١٩٣ هـ (٧٨٦ - ٨٠٩ م).
(٢) صبح الأعشى (٢ : ٤٧٥ - ٤٧٦).
(٣) أخبار الراضي بالله والمتقي لله من كتاب الأوراق للصولي (ص ٢٦٠، القاهرة ١٩٣٥).
(٤) معجم البلدان (مادة : دار القزّ).
(٥) مراصد الاطلاع (مادة : دار القزّ).

من المحالّ، وبقيت هي والنصرية والعتابيون ودار القزّ متصلة بعضها ببعض كالمدينة المفردة في آخر خراب بغداد. يُعمل في هذه المحالّ في أيامنا هذه الكاغد»[١].

وقد أطرى القلقشندي نفاسة الورق البغدادي، فقال: وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه[٢] البغدادي: وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب اجزاء، وقطعه وافر جداً، ولا يُكتب فيه في الغالب إلا المصاحف الشريفة. وربما استعمله كتّاب الانشاء في مكاتبات القانات ونحوها[٣]».

وفي كلامنا على أنواع الورق، كنا نوهنا بالدرج المنصوري الذي كان يُعطى لمن يخرج من دار الوزير ابي الحسن بن الفرات وقت عشاء. وقد ذكر ابن الطقطقي الخبر بوجه آخر نسوقه ها هنا لفائدته في معرفة وفرة الورق يوم ذاك في العراق، قال: «وتولى ابن الفرات الوزارة ثلاث دفعات للمقتدر. قالوا: كان إذا ولي ابن الفرات، يغلو الشمع والثلج والكاغد لكثرة استعماله لذلك. لأنه ما كان يشرب احد، كائناً من كان، في داره في الفصول الثلاثة إلاّ الماء المثلوج، ولا كان أحد يخرج من عنده بعد المغرب إلا وبين يديه شمعة كبيرة نقية، صغيراً كان أو كبيراً. وكان في داره حجرة معروفة بحجرة الكاغد، كلّ من دخل واحتاج الى شيء من الكاغد اخذ حاجته منها»[٤].

ولفظة «الكاغد» الواردة في هذا النص، جاءت بصورة «القراطيس» في نصٍ آخر لهذا المعنى. قال هلال الصابئ: «وفي جانب الدار (دار ابن الفرات)، ادراج كثيرة لأصحاب الحوائج والمتظلمين، حتى لا يلتزم احد منهم مؤونة لما يبتاعه من ذلك، وأنصاف قراطيس وأثلاث»[٥].

(١) معجم البلدان (ماده: جهار سوج). وهذه المادة ذكرها في نصٍّ سابق نقلناه اعلاه بصورة: شِهار سوك.
(٢) توفي القلقشندي، في سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) وقد ذكرنا ذلك سابقاً.
(٣) صبح الأعشى (٢: ٤٧٦).
(٤) الفخري (ص ٣١٢ طبعة اهلورد، غوط ١٨٦٠). وقد لمّح مسكويه (تجارب الأمم ١: ١٢٠ طبعة امدروز) الى غلاء هذه المواد الثلاث ببغداد أيام وزارة هذا الوزير.
(٥) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص ١٩٥).

ما ما كان يُنفق على الورق في الشهر ، في ايام المعتضد [١] فقد جاء في العمل الذي وجده هلال الصابئ ، في ذكر احمد بن محمد الطائي ، وما ضمنه من الأعمال وشرطه على نفسه من حمل مال الضمان مياومةً الى بيت المال ، وقد شرح فيه وجوه خرج المياومة . فمن ذلك أثمان الورق ، قال : « أرزاق أكابر الكتاب واصحاب الدواوين والخزّان والبوّابين والمديرين والأعوان وسائر مَن في الدواوين ، وثمن الصحف والقراطيس والكاغد ... اربعة آلاف دينار وسبع مائة في الشهر مائة وستة وخمسين ديناراً وثلثين » [٢] .

٩ — صناعة الورق في بلاد الشام

بعد ان اتسع نطاق صناعة الورق في العراق ، انتقلت منه الى بلاد الشام ، فأُنشئت فيها معامل صنعت أنواعًا نفيسة من الورق . وكانت طرابلس الشام من عيون المدن التي فاقت ما سواها من البلدان في صُنع الورق . وقد زارها الرحالة الشهير ناصر خسرو في سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٧ م) واطرى ورقها بقوله انّ اهل هذه المدينة « يصنعون بها الورق الجميل مثل ورق سمرقند ، بل احسن منه [٣] » .

ومثل هذا الاطراء لا يقع ما لم تكن تلك الصناعة قد تقدّمت في هذه المدينة تقدمًا محسوسًا ، استرعى انظار هذا السائح الفارسي .

ومن البلدان التي تميزت بصناعة الكاغد منذ المائة الرابعة للهجرة ، طبرية . وقد نوّه بذلك البشاري المقدسي [٤] .

اما « دمشق » وهي أم المدائن الشامية ، فقد اشتهرت بمعامل ورقها اشتهاراً بعيداً . وقد نوّه بورقها مؤرخو اليونان [٥] . أما المؤرخون العرب ، فقد مدحوا

---

(١) كانت خلافته من سنة ٢٧٩ الى ٢٨٩ هـ (٨٩٢ — ٩٠٢ م) .
(٢) تحفة الامراء في تاريخ الوزراء (ص ٢٠ — ٢١) .
(٣) سفرنامه لناصر خسرو (ص ١٣ من الترجمة العربية ليحي الخشّاب ، القاهرة ١٩٤٥) .
(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للبشاري المقدسي (ص ٨٠ طبعة دي غويه ، ليدن ١٩٠٦) .
(٥) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي بك (١ : ٢١٥) .

الورق الدمشقي وأطروا محاسنه . قال ابو البقاء البدري (وهو من أهل المائة التاسعة للهجرة) : وفيها «تعمل صناعة القرطاس بحسن صقاله ونقي أوصاله» [١] . والمراد بالقرطاس ها هنا الكاغد .

وكانت تجارة الورق الشامي رائجة رواجاً عظيماً ، فقد «كانت اوربة الشرقية تبتاع ورقها من بلاد الشرق الأدنى مباشرةً ، على ما يشهد لذلك اسم الورق الدمشقي (شارتا داماسينا) ...» [٢] .

وقد وصف العلامة محمد كرد علي بك ورق الشام بكلام يحسن بنا إيراد بعضه في هذا المقام ، قال : «وكان الورق يصنع أشكالاً في مكابس صغيرة ، ويعمل من الخروق البالية أو الحرير ، واستبدل ورق القطن الذي منه الورق الدمشقي بالحرير في سنة ٧٠٦ م رجلٌ اسمه يوسف بن عمرو . ولا يزال في خزانة دار الكتب العربية بدمشق كتابٌ كتب سنة ٢٦٦ ه على ورق يُظنّ انه من الورق الشامي وهو أقدم مخطوط عرف بالشام ولا يزال على متانته» [٣] .

ثم تطرّق الى الكلام على صنع الورق في مدينة «حلب» فقال : «وحدثني احد علماء حلب ، أن الورق كان يصنع في الشهباء . وان حياً من أحيائها لا يزال اسمه الوراقة ، حيث كانت معامل الورق . والورق الحلبي الصقيل المتين مشهور الى عهدنا» [٤] .

وقد عرف غير ما ذكرنا من بلدان الشام بصنعها للورق ، مدن اخرى كانت معامله قائمة فيها ، منها حماة ومنبج [٥] وغيرهما .

وأشار القلقشندي الى الورق الشامي ، فقال بعد كلامه على الورق البغدادي ،

---

(١) نزهة الأنام في محاسن الشام للبدري (ص ٣٦٣ ، القاهرة ١٣٤١ ه) .
(٢) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي بك (١ : ٢١٥) .
(٣) خطط الشام (٤ : ٢٤٣) .
(٤) خطط الشام (٤ : ٢٤٤) .
(٥) خطط الشام (٤ : ٢٤٢) .

«ودونه في الرتبة الشامي . وهو على نوعين : نوع يُعرف بالحموي ، وهو دون قطع البغدادي . و (نوع) دونه في القدر ، وهو المعروف بالشامي ، وقطعه دون القطع الحموي» [١] .

وفي هذا النص إشارة الى ما كانت عليه حال الورق في الشام ، في أوائل المائة التاسعة للهجرة ؛ والى انّ مدينة «حماة» كانت أيضاً من جملة المدن التي اشتهرت بورقها .

١٠ — صناعة الورق في الديار المصريّة

ولم يبقَ صنع الورق مقصوراً على العراق والشام ، بل تعداهما الى ديار النيل ، فانتشرت فيها معامل الورق التي أجادت صنعه ووفّرت كمياته .

ذكر المقريزي في كلامه على خطة بني رية بن عمرو ، بالفسطاط ، انّ «هذا الموضع اليوم [٢] وراقات ، يُعمل فيها الورق» [٣] .

وذكر في موطن آخر عن صنع الورق المنصوري بمصر ، بقوله : «والمطابخ التي يُصنع فيها الورق المنصوري ، مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة» [٤] .

وأشار الى «خط خان الوراقة» [٥] . وفي هذه التسمية دليل على كون بعض الصناع يعملون الورق في ذلك الخان .

ولم يفت القلقشندي أن يصف الورق المصري . قال بعد ان ذكر الورق العراقي والورق الشامي : «ودونهما في الرتبة : الورق المصري ؛ وهو أيضاً على قطعين : القطع المنصوري ، وقطع العادة ، والمنصوري أكبر قطعاً . وقلما يُصقل

---

(١) صبح الأعشى (٢ : ٤٧٦) .
(٢) توفي المقريزي سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) فكلامه يدلّ على ما كان في النصف الأول من المائة التاسعة للهجرة .
(٣) خطط المقريزي (= المواعظ والاعتبار) (٢ : ٧٧ مطبعة النيل ، القاهرة ١٣٢٥ هـ) .
(٤) خطط المقريزي (٢ : ١٨٩) .
(٥) خطط المقريزي (٣ : ٣٧) .

وجهاه جميعاً . أما العادة فان فيه ما يُصقل وجهاه ، ويسمى في عُرف الورّاقين المصلوح . وغيره عندهم على رتبتين : عالٍ ووسط . وفيه صنف يُعرف بالفوّي صغير القطع ، خشن غليظ خفيف الغرف ، لا يُنتفع به في الكتابة ، يُتخذ للحلوى والعطر ونحو ذلك [١] » .

١١ — صناعة الورق في ديار الغرب والأندلس

انتقلت صناعة الورق من ديار الشرق ، من العراق والشام ومصر ، الى ديار الغرب . فصار يُصنع في جزيرة صقلية ومراكش والأندلس . ومن هذه البلدان انتقل الى ديار الافرنج الأخرى ، على ما هو معروف في تاريخ صناعة الورق عند الأوربيين .

لقد أنشأ العرب في جزيرة صقلية « مصانع لصنع الورق ، ومنها انتشرت صناعة الورق في ايطالية » [٢] .

وكانت أشهر مدن الأندلس التي عُرفت بإجادة ابنائها صنع الورق « شاطبة » ، وهي مدينة كبيرة في شرقي الأندلس وشرقي قرطبة . وقد أطنب البلدانيون في مديح كاغدها . قال الشريف الادريسي : « ويُعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير » [٣] . وقال ياقوت الحموي : « ويُعمل الكاغد الجيد فيها ، ويُحمل منها الى سائر بلاد الاندلس » [٤] .

وقد نوّه المقّري (المتوفى سنة ١٠٤١ هـ — ١٦٣١ م) بالورق المنصوري في بلاد الأندلس [٥] . وهذا الضرب من الورق ، مرّ بنا ذكره في كلامنا على « أنواع الورق » من بحثنا هذا .

(١) صبح الأعشى (٢ : ٤٧٦ - ٤٧٧) .
(٢) الاسلام والحضارة العربية (١ : ٢٦٣) .
(٣) مختصر نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للادريسي (ص ١٦٨ ،طبع رومية ، سنة ١٥٩٢م).
(٤) معجم البلدان (٣ : ٢٣٥ طبعة وستنفلد) ، وانظر : خريدة العجائب (ص ٢٨)
(٥) نفح الطيب للمقّري (١ : ٦٩٤ طبعة دوزي) .

أما ورق بلاد الغرب ، فقد ذمه القلقشندي . قال بعد وصفه ورق العراق والشام ومصر : « ودون ذلك ، ورق أهل الغرب والفرنجة . فهو رديء جداً ، سريع البلي ، قليل المكث . ولذلك يكتبون المصاحف غالباً في الرق على العادة الأولى ، طلباً لطول البقاء »[1] .

١٢ — صناعة الورق في بلاد فارس

لم تلقَ صناعة الورق ، في هذه البلاد ، العناية اللائقة بها في صدر الاسلام . وكان منتظراً ان تنتقل صناعته من سمرقند الى هذه الديار ، قبل انتقالها الى بغداد . غير ان الأنباء التاريخية لا تروي شيئاً عن اهتمام الفرس بصنعه إلاّ في عصورٍ متأخرة ، أعني بعد انتشاره في العراق والشام وغيرهما .

ومن أشهر بلاد فارس التي عُرفت بجودة ورقها ، بلدة « خُونج » التي تسمى أيضاً « خونا » . يقول فيها ياقوت انها تسمى الآن (في أوائل المائة السابعة للهجرة) « كاغد كنان » أي صنّاع الكاغد[2] . وهذه البلدة على مسيرة يومين من زنجان .

١٣ — مقادير قَطْع الورق

كثيراً ما يعثر المطالع في التصانيف العربية القديمة ، على الفاظ تتصل بالورق من حيث حجمه . فان قطوع الورق عند الأقدمين ، تختلف باختلاف الغرض الذي يُتخذ له . وباختلاف البلدان التي تصنعه . قال القلقشندي في هذا الصدد ما هذا بعضه : « قد ذكر محمد بن عمر المدائني في كتاب القلم والدواة[3] : ان الخلفاء لم تزل تستعمل القراطيس امتيازاً لها على غيرها من عهد معاوية بن أبي سفيان .

---

(١) صبح الأعشى (٢ : ٤٧٧) .
(٢) معجم البلدان (٢ : ٥٠٠ طبعة وستنفلد) .
(٣) هذا الكتاب ضائع . وفي النصّ الذي نقله عنه القلقشندي دليل على نفاسته وجلالة قدره . فكم فقدنا من هذه الأسفار المثمّنة ؟

وذاك انه يُكتب للخلفاء في قرطاس من ثلثي طومار . والى الأمراء من نصف طومار . والى العمال والكتاب من ثلث . والى التجار وأشباههم من رُبع . والى الحساب والمساح من سُدُس . فهذه مقادير لقطع الورق في القديم ، وهي : الثلثان والنصف والثلث والربع والسدس . ثم المراد بالطومار الورقة الكاملة ، وهي المعبر عنها في زماننا بالفرخة . والظاهر انه أراد القطع البغدادي ، لأنه الذي يحتمل هذه المقادير ، بخلاف الشامي . لا سيما وبغداد إذ ذاك دار الخلافة . فلا يحسن أن يُقدَّر بغير ورقها ، مع اشتماله على كمال المحاسن »[١] .

وقد أوضح القلقشندي عن مقادير الورق المستعمل في زمانه (المائة التاسعة للهجرة) ، فتكلم[٢] على ما كان مستعملاً منها بديوان الانشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية ، وهي تسعة مقادير :

١ — قطع البغدادي الكامل : عرضُ دَرْجه عرضُ البغدادي بكماله : وهو ذراعٌ واحد بذراع القماش المصري ؛ وطول كلّ وصل من الدّرج المذكور ذراعٌ ونصفٌ بالذراع المذكور .

٢ — قطع البغدادي الناقص : عرض درجه دون عرض البغدادي الكامل بأربعة أصابع مطبوقة .

٣ — قطع الثلثين من الورق المصري : المراد به ثلثا الطومار من كامل المنصوري . وعرض دَرْجه ثلثا ذراع .

٤ — قطع النصف : المراد به قطع النصف من الطومار المنصوري ، وعرض درجه نصف ذراع .

٥ — قطع الثلث : والمراد به ثلث قطع المنصوري . وعرض درجه ثلث ذراع .

٦ — القطع المعروف بالمنصوري : عَرضه تقدير ربع ذراع .

٧ — القطع الصغير : ويُقال فيه قطع العادة . وعرض درجه تقدير سدس ذراع .

---

(١) صبح الأعشى (٦ : ١٨٩) .

(٢) صبح الأعشى (٦ : ١٩٠ — ١٩٣) ، وضوء الصبح المسفر (١ : ٤١٣ — ٤١٥) .

٨ — قطع الشاميّ الكامل : عرض درجه عرض الطومار الشامي في طوله .

٩ — القطع الصغير : وهو في عرض ثلاثة أصابع مطبوقةً من الورق المعروف بورق الطير . وهو صنفٌ من الورق الشامي رقيق للغاية ، وفيه تكتب ملطفات الكتب وبطائق الحمام .

أما مقادير الورق المستعملة في ايام القلقشندي بدواوين الانشاء في بلاد الشام ، فلا تخرج عن اربعة مقادير ، وكلها من الورق الشامي :

١ — قطع الشاميّ الكامل : وهو الذي يكون عرضه عرض الطومار الشامي الكامل في طوله .

٢ — قطع نصف الحموي : عرض درجه عرض نصف الطومار الحموي وطوله بطول الطومار .

٣ — قطع العادة من الشامي : وعرض درجه سدس ذراع في طول الطومار أو دونه .

٤ — قطع ورق الطير المقدّم ذكره .

١٤ — المؤلفات القديمة في صناعة الورق

قليلة هي المؤلفات العربية القديمة التي تصف كيفية صنع الورق ، وممَّ يصنع ؟ ولعلّ هذه القلة ناشئة عن فقدان كثير من الكتب ، وبينها ما يتناول هذا الموضوع . أو لعلّ مردّ تلك القلة الى عدم احتفال القوم بتدوين هذه الأمور ، كشأنهم في الإقلال من التأليف في أحوال كثيرٍ من الصناعات الأخرى .

والى هذه القلة ، امكننا بطول البحث أن نقف على بعض ما دُوّن في موضوع صنع الورق .

ففي خزانتنا ، مخطوط حديث الخط ، في ٥٣ ورقة ، عنوانه « كتاب فضل القلم والخط وأعمال المداد » . ولا نعلم من أمر مؤلفه شيئاً . وقد كسره على عدة أبواب ، عنوان الحادي عشر منها ، وهو آخر ابواب الكتاب : « في عمل

الكاغد وصقله وترتيب الأقلام» . وكلامه على صنع الكاغد ملأ أربع صفحات من هذا الباب .

وفي دار الكتب المصرية ، رسالة مخطوطة عنوانها «صناعة الورق والليق والحبر» [١] ، تأليف محمود خليفة ابن سليمان بن عبد الرحمن بن مصطفى افندي ، وهي في أربع ورقات ، كتبت سنة ١١٣٩ هـ (١٧٢٧ م) .

وفي الخزانة الآصفية بالهند ، مخطوطة برقم ٢٢١ ، وهي نسخة فريدة من كتاب «المخترع في فنونٍ من الصُنَع» [٢] ، كتبها محمد بن قوام بن صفي بن محمد ضياء ترك ناكوري ، المعروف بقاضي خان ، في سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧١ م) . أما المؤلف فغير معروف . ويقوم هذا الكتاب من خمسة عشر باباً ، خامسها «في عمل الكاغد البلدي على اختلاف اصنافه ووضع الأسرار في الكتب وما يمحو الدفاتر والرقوق» .

١٥ — آداب صناعة الورق

ولقد أطلنا البحث والتنقير في ما انتهى الينا من كتب «الحِسْبة» أملاً في الوقوف على ما ينير السبيل في موضوع صُنع الورق وما يترتب على صناعه ، فلم نظفر بطائل . فالذين بحثوا في شؤون الحسبة لم يتطرقوا قط الى هذا الموضوع .

وقد يكون المصدرُ الوحيد الذي أفادنا كثيراً في هذا الباب ، كتاب «المدخل» لابن الحاج ، المتوفى في القاهرة سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٦ م) . فقد عقد فصلاً في نية الوراق وكيفيتها وتحسينها [٣]» لا نرى بأساً من أن نقتطف منه ما يفيد بحثنا . قال وينبغي للورّاق صانع الورق : «أن يحذر من الغش فيما هو يحاوله . مثاله : أن يُعطي الدست الذي يساوي ثلاثة دراهم فيبيعه على

(١) فهرست دار الكتب المصرية (٥ : ١٥١ ، الرقم ٣٩ صناعات) .

(٢) وصف الاستاذ عبد القدوس الهاشمي هذا الكتاب وصفاً مفيداً في كتاب «المباحث العلمية من المقالات السَنية» (حيدر آباد ١٣٥٨ هـ ، ص ١٥٢ — ١٥٨) .

(٣) المدخل لابن الحاج (٤ : ٧٩ : ٨٣ ، المطبعة المصرية بالأزهر ١٩٢٩) .

انه من الدست الذي يساوي أربعة ، لأن الورق في ذلك يختلف ثمنه بسبب صفته . فقد يكون زائداً في البياض وفي الصقال ، ويكون مما عُمل في الصيف ؛ وآخر عكسه ، أعنى فيه سُمرة ونقص في الصقال او البياضة وعُمل في الشتاء . وما بين ذلك . وإذا كان كذلك ، فيتعين عليه أن يبين حتى يخرج ببيانه من الغش . فان لم يفعل دخل بكتمانه تحت عموم قوله عليه الصلاة والسلام : مَن غشنا فليس منا »[١] .

ثم قال :

« وليحذر ، عند شرائه الورق من الوراقة [٢] ، ان يكون في وقتٍ يعلم انه يكشف فيه على عورات من يعمل فيها من الصناع ، إذ أنّ اكثرهم يجعلون في أوساطهم خرقة تصف العورة لصغرها وانحصارها على العورة وابتلالها بالماء ، والفخذ عن آخره مكشوف . فان دخل والحالة هذه فهي معصية ... فيحتاج لهذا المعنى ان يتحرّى وقتاً يكونون فيه سالمين مما ذُكر »[٣] .

ثم انتهى المؤلف الى القول : « وليحذر (بائع الورق) من أن يخلط الورق الخفيف بالورق الجيد الذي يصلح للنسخ ، لأنّ ذلك تدليس على المشتري . لأنّ الخفيف لا يحمل الكشط لخفته ، بل يكون ذلك عنده بمعزل . فاذا علم انَّ المشتري ممن ينسخ فيه ، أعطاه مما يوافقه منه . وإن علم انه ممن يكتب فيه الرسائل وما أشبهها مما يجوز ، أعطاه من الورق الخفيف بعد أن يبين له ذلك »[٤] .

ولم يفتْهُ أن يوصي الورّاق الذي في الوراقة « أن لا يعمل شيئاً من الورق المكتوب ، إلا بعد أن يعرف ما فيه . لأنه قد يكون فيه شيء له حرمة

(١) المدخل (٤ : ٨١) .
(٢) المراد بالوراقة هنا ، معمل الورق . وقد مرّت هذه اللفظة في تضاعيف بحثنا .
(٣) المدخل (٤ : ٨١) .
(٤) المدخل (٤ : ٨١ – ٨٢) .

شرعية ، بل هو الغالب . . . فيجتنب ذلك كله لحرمته وتعظيمه في الشرع الشريف ، لأنّ الصناع يدوسون ذلك بأرجلهم وغيرها ، وهذا من أعظم ما يكون من الامتهان » [1] .

١٦ — ختام البحث

لا نتعدى وجه الصواب إذا ما قلنا ، انّ للعرب اليد الطولى والفضل الأعظم في صناعة الورق . فهم الذي عُنوا بنقله ، منذ عهدٍ بعيد ، أعني منذ المائة الثانية للهجرة ، من بلاد الصين الى ديار العراق ، فالشام ، فمصر ، فالمغرب والأندلس . وأدخلوا عليه من فنون التحسين والتجويد ، ما تشهد به عشرات ألوف الأسفار العربية المخطوطة ، المنبثة اليوم في كثير من خزائن كتب العامة والخاصة في بلدان الشرق والغرب .

لقد ازدهرت معامل الورق في كثير من بلاد الاسلام منذ المائة الثانية للهجرة . فأنتجت أصنافاً عديدة تختلف في قطعها وصقلها ولينها وغير ذلك من الصفات . ثم تسربت هذه الصناعة من بلدان الاسلام الى كثير من ديار الغرب ، فتفنن أهلها في صنعه ، وأدخلوا عليه — بفضل الآلة — من التحسينات الكثيرة ما نافسوا بها صناعة الورق الشرقي ، فزاحموه حتى كسدت سوقه ، وذهبت تلك المعامل في ذمة التاريخ .

(بغداد) كوركيس عواد

---

(١) المدخل (ص ٨٢) .